

الأدب لا ينسب إلى المكان وإنما إلى اللغة

الروائي المصري يحيى مختار لـ«العرب»: الأدب النوبي مصطلح غير دقيق



مصطفى عبيد
كاتب مصري

القاهرة - اضحى الأدب سلما لطرر أفكار ومواقف سياسية عدة. استغل روائيون دققات الاحتفاء بهم وبما يكتبون في تمرير رسائل سياسية وفنوية مختلفة، رغم أن مهمة الأدب الأولى هي الإمتاع وبت قيم الجمال. في جنوب مصر، تمتاز منطقة النوبة بسماوات خاصة، وعبادات وتقاليد ولغة مختلفة يتم استخدامها نادرا، ما دفع بعض الأصوات الأدبية المنطلقة من هناك إلى طرح أفكار ومطالب سياسية تصل إلى حد المطالبة بما يسمونه باستقلال النوبة. من هنا ولدت تسميات ومصطلحات أدبية تخص تلك المنطقة وهي مصطلحات غير دقيقة، من بينها "الأدب النوبي".

الروائي المصري يحيى مختار والمولود في النوبة، قال لـ«العرب» في حوار خاص، إنه لا يوجد شيء اسمه الأدب النوبي؛ لأن الأدب ينسب إلى اللغة وليس إلى المكان.

أكد مختار أن جميع الأدباء النوبيين الذين قدموا روايات وقصصا عن ثقافة ومجتمع أهل النوبة بدءا برواية "الشمندورة" للاديب الراحل محمد خليل قاسم والصادرة في الستينات من القرن الماضي، وحتى رواية "جدكاب" ليحيى مختار نفسه، والصادرة منذ أربعة أعوام، كتبوا رواياتهم باللغة العربية، ما يعني أن أدبهم عربي لغة وتشكيلا فنيا ودلاليا.

وأشار إلى أنه لا يمكن الحديث عن الروايات التي تحدثت عن الإسكندرية باعتبارها أدبا سكندريا، ولا التي تناولت سيناء باعتبارها أدبا سيناويا، فالأدب لا يمكن تصنيفه تصنيفا إقليميا أو مكانيا.

يحيى مختار واحد من الأدباء المنحدرين من النوبة والمعروفين، ولد بقرية الجنينة سنة 1936، وهي إحدى القرى المتاخمة للحدود بين مصر والسودان، وعاش هناك حتى سن الثامنة، ثم قدم مع عائلته ضمن هجرات كبيرة لأهل النوبة إلى القاهرة، ولم يكن يعرف كلمة عربية واحدة، فالحقه والده بالكتاب، حيث حفظ القرآن الكريم وتعلم العربية، ثم دخل المدرسة لينبغ بين أقرانه ويصبح بعد ذلك أحد الأدباء المعهودين المهتمين بكتابة القصص المعبرة عن الثقافة والبيئة النوبية باللغة العربية.

الأديب المصري يرفض دعوات بعض الكتاب تبني فكرة استقلال النوبة أو تدويل قضيتها، لأن ذلك لا يعبر عن النوبيين الذين يعتبرون أنفسهم جزءا أصيلا من النسيج المصري

ورغم قلة إنتاج الأديب يحيى مختار، مقارنة بأخرين، إذ لم يصدر له سوى أربع روايات، وثلاث مجموعات قصصية، إلا أن النقاد يعتبرونه إحدى العلامات الفارقة في التعبير عن الثقافة النوبية، لأن حكاياته تستمد أصولها من الواقع، وتتميز بعمق الطرح ورشاقة اللغة وجمال التعبيرات اللغوية.

ثقافة مختلفة

أكد يحيى مختار لـ«العرب» أن منطقة النوبة تمثل ثقافة وسماوات اجتماعية مختلفة، لكنها رغم ذلك هي جزء من النسيج المصري الأصيل والمتعدد الثقافات.

قال إنه بالفعل هناك أغان لا يعرفها سوى أهل النوبة، وتواشيع خاصة بهم، ورقصات قد يستغربها غير النوبيين، وأيضا لغة خاصة لا يفهمها سوى المولودين في النوبة، لكن كل ذلك لا يعني أن النوبة خارج مصر، أو أدبها يطلق عليه أدب نوبي.

وأضاف قائلا "من لمعوا من الأدباء والكتاب النوبيين لمعوا بكتاباتهم العربية، لأنهم لو كتبوا باللغة النوبية لن يفهمهم أحد". يبدو مختار بسنواته الثلاث والثمانين

مستعذبا استرجاع ذكرياته خلال حوار مع «العرب» مقررًا أن النوبة بطبيعتها الجغرافية وأحوال سكانها وتقلهم المتكرر نتيجة فيضان النهر، ومشروعات حجز المياه بدءا بمشروع سد أسوان، وحتى إنشاء السد العالي، سكان فيض إبداعي، لذا لم يكن غريبا أن تتناول رواياته الأربع وقصصه القصيرة المتعددة مشاهد وشخوصا وحوادث شهدتها منطقة النوبة، دون أن يعني ذلك شيئا سوى أنه إبداع عربي من النوبة.

كتب مختار مجموعته القصصية الأولى "عروس النيل"، وترجع بعض قصصها إلى فترة اعتقاله 1959-1962، على خلفية اتهامه بالانضمام لخلية شيوعية، لكن المجموعة لم تنتشر إلا مطلع التسعينات لتفوز بجائزة الدولة التشجيعية في ذلك الوقت. وصدرت للرجل بعد ذلك روايات "جبال الكحل"، "مراقى الروح"، و"جدكاب"، ومجموعة "كوبلا"، ومجموعة "اندو ماندو" التي لفتت أنظار النقاد باعتبارها صوتا متميزا في التعبير الجمالي عن النوبة. ويرى كثير من النقاد أن هناك تيمات معينة تتكرر في أدب يحيى مختار لها علاقة مباشرة بمنطقة النوبة، منها مثلا تكرار النهر والجبل في كافة أعماله، فضلا عن المسحة الصوفية التي تغلف كثيرا من شخوصه.

أوضح الأديب المصري لـ«العرب» أن النهار البطل الحقيقي للحياة لدى النوبيين، فهو محور حياتهم ومحركها الأول، ويرونه كل يوم كمرآب لهم، حيث تتراص البيوت جميعا أمام النهر بشكل أفقي ليكون في مرمى أبصارهم دوما، فضلا عن كونه منبع الرزق الدائم المتمثل في صيد السمك، وهو مصدر الخطر الحقيقي بالفيضان المتكرر، ما يدفعهم للتنقل من مكان لآخر، وعلى ضفافه تنتشر المزروعات البرية، ويرتبط بأساطير وحكايات مورثة منذ الأجداد. بمعنى آخر، مصدر الخير والشر، منبع الفرح والأحزان، لذا هو حاضر في الأغاني الشعبية، وموجود في الأمثال العامة، ومذكور في القصص القديمة، وبشكل ما فهو ممتزج بوجوده الناس الذين يحيون حيوات بأئسة باهتة يغلفها الفقر، وتزيدها الطبيعة قسوة، فهم في الغالب ينحصرون بين الجبل والنهر وهما حدان من حدود الطبيعة الصامتة.

لفت يحيى مختار إلى أن المسحة الصوفية المميزة لكثير من الشخصيات في رواياته حقيقية ومرتبطة بقناعة الناس بما يلعبه القدر من دور مهم في

حيواتهم، فتقلهم وهجرتهم من منطقة لأخرى مرتبطان بفيضان النهر، كما أن الطرق الصوفية تنتشر بقوة بين سكان النوبة وتبث قيمها الراسخة بالتسامح والرضا وقبول الآخر منذ قرون.

أهل طموح وعزيمة

رأى يحيى مختار أن الطموحات الحياتية تسكن أهل النوبة كرد فعل مقاوم لفقر الحال والحرمان من المدنية، لذا فإن كثيرا من النوبيين يقررون الهجرة إلى الشمال بحثا عن الرزق، والعلم، والتحرر من قسوة الطبيعة، ومن يتبع حكايات النوبيين القادمين إلى القاهرة يجدهم جميعا نجحوا في ما حلموا به، وتغلبوا على فقرهم وبؤسهم ورسموا وقائع حياة أكثر حسنا لأبنائهم وأحفادهم.

وأضاف أنهم كانوا في الماضي لا يعملون إلا في المهن المتواضعة، مثل العمل كخدم وطهاة وبوابين وحراس، لكن تمردهم على الحال وسعيهم للتعليم والتطور غلبا الصورة النمطية للنوبيين في مصر.

ربما كان ذلك ما دفعه لأن يكتب روايته الأخيرة "جدكاب"، وتحكي قصة تغريبة شخص نوبي حقيقي، حمل نفس الاسم جدكاب، وترك بلده في الجنوب هربا من بؤسها وفقرها وشيوع الخرافات فيها، وقدم إلى القاهرة صبيا صغيرا طالبا تحقيق ذاته، فعمل في أعمال صعبة وبأئسة منها عامل نظافة في المستشفى اليوناني، وتمكن من تعلم اللغة اليونانية كإحدى أدواتها دون معلم، ثم تعلم بعد ذلك اللغة الفرنسية وأقنعتا بشكل جيد، وعمل بعد ذلك في بنك كبير، ثم أصبح شخصا ذا شأن كبير، وقرر العودة إلى قريته ليدعم ثرات أهله المنسي فنا وتاريخا وثقافة.

وأوضح يحيى مختار في حوار مع «العرب»، أنه عرف جدكاب خلال حياته وأحبه بصديق وكان يلقيه لسنوات طويلة في النادي النوبي بالقاهرة وعرف حكايته، وأعجب بشخصيته وقرأ فيها سمات الطموح والإصرار على تحقيق الذات فيه، ليقدمها للناس كنموذج لروح النوبي الوثابة المتطلعة دوما نحو التطور الاجتماعي، واعتبره رمزا

يحيى مختار كان من شلة الروائي نجيب محفوظ

للإنسان الراغب في الفقه فوق المشكلات والتحديات الحياتية الصعبة، وأعاد تقديمه للناس بشكل أدبي. سبق وطرح كتاب كثر نماذج عدة للشخصية النوبية، كان يغلب على معظمها الانكسار والشعور الدائم بالمظلومية، مثلما هو الحال في أعمال الأديب الراحل إدريس علي، والروائي حجاج أدول، غير أن يحيى مختار يرى أن التباكي على الهوية أو الانسحاق في مأساة التهجير لن يعيد للنوبيين بلادهم وذكرياتهم المغمورة بمياه النيل، قائلا "اعتبر القضية برمتها قدرية بحكم الجغرافيا أولا، والأفضل استدعاء قصص النجاح وكسر الواقع للنوبيين كرد فعل طبيعي على مأساتهم".

وقال "وجدت يومها أنني سأضطر في ظل التضيق على الحريات أن أكتب ما لا يرضاه ضميري، فقررت العمل في أي مكان بعيدا عن العمل الصحافي".

أسهم ذلك في تفرغه التام للقراءة والإبداع والتأني الشديد في طرح مشروعه الأدبي الذي بدأه بكتابة القصص القصيرة في الصحف، وكانت أول قصة له بعنوان "البناء" نشرت في مجلة صوت الجامعة، ثم نشرت له قصة في جريدة المساء بعنوان "قطعة من العصر الملكي".

رغم قلة إنتاج الأديب يحيى مختار، مقارنة بأخرين، إذ لم تصدر له سوى أربع روايات، وثلاث مجموعات قصصية، إلا أن النقاد يعتبرونه إحدى العلامات الفارقة في التعبير عن الثقافة النوبية

ونشر بعد ذلك قصصه في مجلة الطليعة التي كانت محل متابعة واهتمام الوسط الثقافي، ومنها تعرف على مثقفين كبار مثل يوسف إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله وجمال الغيطاني وطوال سنوات الستينات والسبعينات من القرن الماضي، كان مختار أحد أفراد شلة الأديب نجيب محفوظ ومشاركا دائما في ندواته الأسبوعية كل ثلاثاء، وكانو صفيحة حلمي في القاهرة، ثم في عوامة فرح بوت في الجيزة.

قال مختار إن الإنسان النوبي شخص مثابر، صلب، يقاوم ظروفه وواقعه، ولا يحمل آخرين ظروف الطبيعة التي شاعت أن تكون أرض النوبة معرضة للفيضان وفي مسار النهر وتحت رحمته.

تأسيس المأساة

يرفض الأديب المصري دعوات بعض الكتاب تبني فكرة استقلال النوبة أو تدويل قضيتها، لأن ذلك لا يعبر أبدا عن النوبيين الذين يعتبرون أنفسهم جزءا أصيلا من النسيج المصري.

وأكد لـ«العرب» أن الخطاب الذي يبثه الأديب حجاج أدول بشأن النوبة لا يمثل حقيقة الوضع، لأن أدول مولود في مدينة الإسكندرية ولم يعيش في النوبة ولا يعرف طبائع الناس وسماواتهم عن معايشة، فضلا عن عدم معرفته باللغة النوبية من الأساس.

وأوضح أنه ضد تأسيس المأساة، والأديب يجب أن يكون واعيا بأنه مصدر جمال لا قبح، ومستندا على الناس وليس السياسة، وأدبه ممزوج بالإنسان وهمومه وأوجاعه.

ولعبت الظروف الحياتية المثيرة التي مر بها الروائي المصري دورا خطيرا في تشكيل شخصيته الواعية المتصالحة مع العالم، والبعيدة عن الصخب

لا يمكن الحديث عن الروايات التي تحدثت عن الإسكندرية باعتبارها أدبا سكندريا، ولا التي تناولت سيناء باعتبارها أدبا سيناويا، فالأدب لا يمكن تصنيفه تصنيفا إقليميا أو مكانيا

